حوليات آداب عين شمس المجلد ٤٩ (عدد يوليو – سبتمبر ٢٠٢١)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

نظريّة السلالم الحجاجيّة في شرح الرضيّ على كافية ابن الحاجب

أسماء صائب محمّد جواد الكنانيّ*
مصطفى كاظم شغيدل**

كلية الآداب – قسم اللغة العربية– جامعة بغداد – العراق
woh82@gmail.com

المستخلص

السلّم الحجاجيّ: هو علاقة ترتيبيّة للحجج، فالحجج تترتّب في السلّم، أمّا من الأدنى إلى الأعلى، أو من الأعلى إلى الأدنى بحسب قوّتها الحجاجيّة.

وقد خلصتُ إلى أنّ الرضيّ قد استعمل هذه النظريّة الحديثة، لكن ليس بالدقة التي تناولها المحدثون في كتب الحجاج، فهو لم يصرّح بها علنًا، ولم يؤصّل لها كنظريّة مكتملة الجوانب، لكن القارئ حينما يقرأ شرح الرضيّ يجد جذورًا، وإشارات لهذه النظريّة، كان من الممكن أن تستثمَر من الجيل الذي لحق الرضيّ، وتصبح نظريّة واضحة المعالم، وكذلك عدّت من أهمّ تقنيات الحجاج التي استعملها الرضيّ؛ لتثبيت القواعد النحويّة، وقد أسهمت تلك الحجج في عملية إقناع المتلقي.

إنّ نظريّة السلالم الحجاجيّة من أولويّات البحث في الدرس النحويّ؛ لأنّ القضية النحويّة التي تشرح لا بدّ أن يكون فيها نوع من التدرّج ؛ للوصول بها إلى ذهن المتلقي، وهذا التدرّج كان حاضرًا في شرح الرضيّ باستعماله الحجج من الأدنى إلى الأعلى، أو بالعكس.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠٢١.

المقدمة:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسّلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، محمّد بن عبد الله، النبيّ الأمين، وعلى آله الطيّبين الطّاهرين، وصحبه الغرّ المنتجبين.

وبعد:

فهذا بحث في (نظريّة السلالم الحجاجيّة في شرح الرضيّ على كافيّة ابن الحاجب)؛ فقد حظيَ الحجاج في الآونة الأخيرة باهتمام اللغويّين، والبلاغيّين، والمناطقة، وغيرهم، فأصبحنا نقرأ الحجاج اللغويّ، والبلاغيّ، والمنطقيّ... إلى آخره؛ لذلك يمكننا أن نعد النحو علمًا قائمًا على الحجاج، ولعلّ الصعوبة التي تكمن في النحو، تتطلّب آليات الحجاج؛ لإقناع المخاطب بالأدلة؛ والسبب في اختياري لهذا الموضوع هو تأكيد وجود نظريّة السلالم الحجاجيّة في النحو، ولا سيّما في شرح الرضيّ، ومحاولة إظهار أهمّ الجوانب الحجاجيّة وسلّميتها في اللغة العربيّة، واختبار هذه النظريّة على مساحة من البحث النحويّ؛ سعيًا لالتماس أصول الحجاج، وتقنياته في النحو العربيّ؛ لما يحتويه من أدوات تجعل من الخطاب وسيلة؛ لإقناع المتلقي وفهمه للمادّة المطروحة، وقد وقع الاختيار على أحد الكتب النحويّة الضخمة، التي تحتوي آليات الحجاج، وهو: شرح الرضيّ على كافيّة ابن الحاجب.

وقد قسّمت المبحث على فقرات، تناولتُ في الفقرة الأولى منه: توطئة عن السلّم والمفاهيم التي تتعلّق به، وتناولت في الفقرة الثانية منه: مفهوم السلّم الحجاجيّ، وقوانينه، وأهميّته، وتناولت في الفقرة الثالثة منه: نظريّة السلالم في شرح الرضيّ، ثمّ ختمت بحثي بخاتمة أوجزتُ فيها أهمّ النتائج التي توصّل إليها البحث، وأردفتها بثبت مصادر البحث ومراجعه، والتي كان أهمّها: شرح الرضيّ على كافيّة ابن الحاجب، شرح وتحقيق: الدكتور عبد العال سالم مكرم، وختامًا لا يسعني إلّا أن أقدّم شكري وامتناني إلى أستاذي المشرف الدكتور مصطفى كاظم شغيدل الذي كان وراء إنجاز هذا البحث،عناية، وإرشادًا، وتقويمًا، فجزاه الله عني أفضل الجزاء.

توطئة

إنّ فعل الحجاج يتمثّل في تدافع الحجج، وترتيبها بحسب قوّتها، فلا يثبت إلّا الحجّة التي تفرض نفسها بوصفها أقوى الحجج في السِّياق، فالمرسل يُرتّب الحجج، التي يرى أنّها تتمتّع بالقوّة اللازمة؛ لتدعم كلامه وتُقوّيه، وهذا الترتيب هو ما يُعرَف بـــ(السُّلّم الحجاجيّ) [١].

وقبلَ أن ندخل في نظريّة السَّلالم الحجاجيّة لا بدّ من توضيح بعض المفاهيم المتعلّقة بهذه النظريّة، ومن هذه المفاهيم (السُّلّميّة)، إذ ورد في معجم ريبول وموشلار أنّ السُّلّميّة صفة ملازمة لعدّة ظواهر، ولاسيّما في اللغة التي وُصِفَت بعض أنظمتها الدلاليّة، والتداوليّة بكونها تراتيبيّة سُلّميّة؛ لأنّها عولجت عن طريق هذه الصفة [٢]، وقد ذكرَ موشلار أنّ أي ظاهرة لسانيّة، أو غيرها تكون ذات خصائص سُلّميّة،إذا كان وصفها يستدعي في الأقلّ صلة علائقيّة متبادلة بين لفظين وتكون بينهما علاقة استلزاميّة، وإنّ مجمل الصلات العلائقيّة المتبادلة بين الألفاظ تشكّل ما يسمّى بالسلّم، ويكون السُّلّم قائمًا على علاقة تراتبيّة بين الألفاظ، مثال على ذلك [بارد ← فاتر ← ساخن ← حار] [٣]، ويتبيّن من تعريف موشلار أنّ الظاهرة التي تقوم على السُّلّميّة يحكم أطرافها والأجزاء المكوّنة لها علاقة تقوم على الاسترسال والاستلزام، وقصد بالاستلزام أنّ درجات السُّلّم يقتضي فيها وجود الضعيف القوي، والأعلى الأسفل، والحار البارد وهكذا، وهذه السلميّة

قائمة في اللغة بجميع مستوياتها، ومن هذه المستويات سلميّة المعجم، وتقوم هذه السُّلّميّة على ضرب خاص من التقابل، ويُقصد بالتقابل الاسترسال في معاني المفردات، نحو:

قارس ↑ جرى
بارد | هرول
منعش ↓ مشى

وقد اتَّضح من الأمثلة السابقة أنّ المعجم تحكمه سُلّميّة تؤكّدها الوظيفة المرجعيّة للغة، والدليل على ذلك درجات الألوان، واسترسالها، فقد أحصى الثعالبيّ(ت٤٢٩ه) في اللون الأبيض درجات عدّة، وكذلك اللون الأسود، وليس الأمر ببعيد عن الحركة، فأفعال الحركة من قبيل مشى، هرول، جرى تنمّ عن سُلّميّة في الحركة في حدِّ ذاتها، وإذا انتقلنا إلى الصرف –أيضًا– نجد السلميّة تتحكّم به كما في الصيغ الصرفيّة من اسم الفاعل، وأسماء التفضيل، والصفة المشبّهة، وصيغة المبالغة فاسم الفاعل أقلّ تعبيرًا عن المعنى من الصفة المشبهة، التي تدلّ على ملازمة الموصوف للصفة، وصيغة المبالغة أقوى منهما؛ لأنّها تدلّ على الكثرة والمبالغة [٤] نحو: (رحمان، رحيم، راحم).

فالحجّة التي تقع في أسفل السُّلّم الحجاجيّ تكون أقلّها قيامًا في عملية التوجيه الحجاجيّ، وأقلّ تأثيرًا في المتلقي، في حين أنّ الصفة التي تقع في أعلى السُّلّم هي التي تُكوّن أكثر مفردات السُّلّم حجاجيّة، وتكون أنجع في إقناع المتلقي[٥].

نظريّة السَّلالم الحِجاجيّة

مفهوم السُّلّم الحجاجيّ: هو علاقة ترتيبيّة للحجج، أو هو عبارة عن مجموعة من الأقوال مزوّدة بعلاقة ترتيبيّة ومُوَفِّية بالشرطين الآتيين، وهما [٦] :

١– كلّ قول يقع في مرتبة ما من السُّلّم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.

٢– كلّ قول في السُّلّم هو دليل على مدلولٍ معيّن، كان ما يعلوه مرتبة هو دليل أقوى منه.

ففي قولنا: نا(زيد من أنبل الناس خلقًا).

د (أكرم زيد عدوه) ↑
ج (أكرم زيد صديقه) |
ب (أكرم زيد أخاه) ↓

ترمز (ب، وج، ود) إلى الأدلة و(نا) ترمز إلى المدلول منها، أي إذا أكرمَ زيد عدوه؛ فهو بالضرورة أكرمَ صديقه، وأكرمَ أخاه [٧]، فحين تقوم بين الحجج المنتمية إلى فئة حجاجيّة ما، علاقة ترتيبيّة معيّنة، فإنّ هذه الحجج تنتمي إلى السلّم الحجاجيّ نفسه، فالسلَّم الحجاجيّ هو فئة حجاجيّة موجّهة [٨]، فقد مثّل ظافر الشهريّ للسلّم الحجاجيّ بما يعرضه الإنسان من سيرته الذاتيّة من التراتبيّات في حياته، ومنها نموه المعرفيّ وأعماله [٩]، أي يمكن أن نقول أنّ السلّم الحجاجيّ موجود في اللغة وعلومها، وكذلك في العلوم الأخرى، وخير مثال لنا في التدرج واتباع السلَّم هو ما ورد في القرآن الكريم من موضوع (تحريم الخمر)؛ إذ لم يكن تحريم شرب الخمر دفعة واحدة، إنّما تدرّج بذكر الحكم؛ وذلك لتهيئة النفوس للحكم الشرعيّ وتقبّله، وغيرها أمورٌ كثيرة من الأمور التي يوجد بها تدرُّج مما ورد في القرآن الكريم.

وخصّ ديكرو هذه النظريّة بمصنّف كامل هو (السلالم الحجاجيّة) [١٠]، وتنطلق هذه النظريّة عنده من إقرار التلازم في عمل المحاجّة بين قول الحجّة (ق) والنتيجة (ن)، ومعنى التلازم: أنّ الحجّة لا تكون حجّة للمتكلم إلّا بعد إضافتها إلى النتيجة، مع الإشارة

إلى أنّ النتيجة قد يُصرّح بها أو قد تبقى ضمنيّة، فنظريّة السَّلالم التي تدعم النتيجة تكون متفاوتة في درجة قوّتها، فتشكّل سلَّمًا ينطلق من أضعف حجّة حتى يصل إلى أقواها؛ لذلك سميّت بـــ(نظرية السَّلالم الحجاجيّة)، ويتّضح ذلك من المثال الآتي:

س/ ماذا تريد أن تفعل اليوم ؟

ج/ ألا ترى أنّ الطقس جميل ؟

فقد اتّضح من الاستفهام في القول (ج) بأنّه حجّة لفائدة نتيجة ضمنيّة هي الخروج للنُّزهة، وإن لم يقع التصريح بالنتيجة [١١].

وقد لحظ ديكرو، وهو يحدّد مفهوم هذه النظريّة أنّ: " كثيرًا من الأفعال اللغويّة هي ذات وظيفة حجاجيّة توجّه المتلقي نحو نتيجة معينة، أو تحوّل وجهته عنها، وأن لهذه الوظيفة علامات، ذلك أنّ القيمة الحجاجيّة للمقول لا تنتج فقط المعلومات التي يحملها وإنّما يمكن للجملة أن تستخدم عبارات أو صيغ أسلوبيّة لإسناد الوجهة الحجاجيّة للمقول، أي أن المقول يحمل في ذاته تعبيرا عن السمة الحجاجيّة، وهي سمة تتنوّع بتنوّع المتكلمين، وتبعا لأوضاع الخطاب فلا أحد يستطيع أن يتوقع النتيجة(ن) المقترحة من (م) بواسطة (ب) " [١٢].

وأقرَّ أنّه بالإمكان أن نتوقع النتيجة؛ انطلاقا من الجملة بأنّ: (م) و(ب) لا يقدمان لذاتهما، بل يوجهان إلى النتيجة نفسها، وإن كانا لا يملكان الدرجة نفسها من القوّة [١٣].

قوانين السُّلّم الحجاجيّ.

وضع طه عبد الرحمن ثلاثة قوانين تُسهم في ترابط الحجج، وترتيبها، وهي:

١- قانون الخفض: ومقتضاه إذا صدق القول في مرتبة معيّنة، فإنّ نقيضه يصدق في المراتب تحته [١٤]، وهذا القانون يوضّح الفكرة، التي ترى أنّ النفي اللغويّ الوصفيّ يكون مساويًا للعبارة (moins que) فعندما نستعمل جملًا من قبيل:

- الجو ليس باردًا.
- لم يحضر كثير من الأصدقاء إلى الحفل.

فبتلك الجملتين نستبعد التأويلات التي ترى أنّ البرد شديد، أو أنّ الأصدقاء كلّهم حضروا إلى الحفل، وسيؤوّل القول الثاني كما يأتي: لم يحضر إلّا قليل منهم إلى الحفل[١٥].

تتجلى صعوبة صياغة هذه الوقائع في أنّ الخفض الذي ينتج عن النفي لا يتموقع في السُّلّم الحجاجيّ، فلا تندرج الأقوال الإثباتيّة (من نمط: الجو بارد) والأقوال المنفية من نمط (الجو ليس باردًا) في الفئة الحجاجيّة نفسها، ولا في السُّلم الحجاجيّ نفسه [١٦].

٢- قانون تبديل السُّلم: و" مقتضى هذا القانون أنّه إذا كان القول دليلا على مدلول معين فإنّ دليل نقيض هذا القول يدلّ على نقيض مدلوله " [١٧].

٣- قانون القلب: ومقتضاه: " أنّه إذا كان أحد القولين أقوى من الآخر في عملية التدليل على مدلول معين، فإن نقيض الثاني أقوى من نقيض الأوّل في التدليل على نقيض المدلول " [١٨]، أي إنّ السُّلّم الحجاجيّ للأقوال المنفية هو عكس سلّم الأقوال الإثباتيّة، فيكون هذا القانون مرتبطًا بالنفي، أي: إذا كان قول (أ) مستعملًا من قِبل متكلم؛ ليخدم نتيجة معينة، فإنّ نفيه أي: (-أ) يكون حجّة لصالح النتيجة المضادة لها، وبعبارة أخرى إذا كان (أ) ينتمي إلى الفئة الحجاجيّة بواسطة (ن)، فإنّ (-أ) ينتمي إلى الفئة

الحجاجيّة المحددة بواسطة (لا–ن)، أي إذا كانت إحدى الحجّتين أقوى من الحجّة الأخرى في التدليل على نتيجة معيّنة، فإنّ نقيض الحجّة الثانية أقوى من نقيض الحجّة الأولى في التدليل على النتيجة المضادة [١٩].

ونوضّح هذا بالمثال الآتي:

- حصل زيد على الماجستير حتّى الدكتوراه.
- لم يحصل زيد على الدكتوراه، بل لم يحصل على الماجستير.

فحصول زيد على الدكتوراه أقوى دليل على مكانته العلميّة من حصوله على الماجستير، وعدم حصول زيد على الماجستير هو الحجّة الأقوى التي تُدلّل على عدم كفاءته من حصوله على شهادة الدكتوراه [٢٠].

تكمن أهمية نظريّة السلالم الحجاجيّة في إخراج قيمة القول الحجاجيّ من حيّز المحتوى الخبريّ للقول، الذي يحتمل الصدق والكذب إلى حيّز لا يحتمل ذلك، فإذا كان للقول وجهة حجاجيّة تحدّد قيمته على حساب أنّه يدعم نتيجة ما، وإذا كان القول مندرجًا ضمن قسم حجاجيّ قائم على قوّة بعض مكوناته، وضعف بعضها الآخر؛ نسبة إلى نتيجة ما، فإن السُّلَّم الحجاجيّ بتركيزه على الطابع المتدرّج والموجّه للأقوال يبيّن أنّ المحاجّة ليست مطلقة، إذ لا تتحدد بالمحتوى الخبريّ للقول ومدى مطابقته لحالة الأشياء في الكون أو عدم مطابقتها، وإنّما هي رهينة اختيار هذه الحجّة أو تلك، قياسًا بنتيجة محدّدة؛ ولذا فالحكم على المحاجّة أساسه القوّة والضعف تبعًا لطابع التدرّج فيها لا الصدق والكذب[٢١].

نظريّة السَّلالم الحجاجيّة في شرح الرضيّ

كما بيّنا سابقًا في حديثنا عن السلّم الحجاجيّ أنّه يقوم على ترتيب الحجج عموديًا من الحجّة الضعيفة إلى الحجّة القويّة، وأنّ الحجج تنتمي إلى فئة حجاجيّة واحدة، ويكون كلّ قول في السلّم دليلًا على مدلول معيّن، ويكون ما يعلوه مرتبة دليلًا أقوى منه.

إن للسُّلّم الحجاجيّ آليات يتحقق بها، ومن هذه الآليات: العلاقات اللغويّة أو شبه المنطقيّة، إلّا إنّه يمكن توسيع مفهومه، ولا يظلّ مقتصرًا على الأدوات اللغويّة أو الاستلزامات شبه المنطقيّة، إذ يمكن توسيع وإدراج آليات في ضمنه ليصبح إطارًا عامًا لتفاضل الحجج، انطلاقًا من المخزون اللغويّ، ونظامه، والتراتبيّات المخزونة في ذهن الإنسان بتفعيل الكفاءة التداوليّة، فقد نستعمل آليات أخر، مثل: علاقات التوكيد، وما يسمّى بالأدلة أو الشواهد الجاهزة، كالأدلة القرآنيّة، والأحاديث الشريفة، وأقوال السلف والحِكَم، والأمثال، ولا يقتصر ترتيبها السلّميّ على متنها، بل تتجاوز قوّته إلى سند الرواية إن وُجِد[٢٢].

وعند تطبيق الكلام السابق على شرح الرضيّ نجد أنّ الرضيّ قد استعمل كل ما بوسعه من أدوات لغويّة؛ لإقناع المتلقي، وإحدى تلك الوسائل أو الأدوات التي استعملها هي: السلّم الحجاجيّ، إذ اتخذ الآيات القرآنيّة، والأحاديث النبويّة، وغيرها حجّجًا تخدم موضوعه النحويّ.

فقد شكّلت تلك الحجج في شرح الرضيّ سلالم حجاجيّة تُسهم في إقناع المتلقي، كما في قول الرضيّ في موضوع البدل وعطف البيان " أقول: وأنا إلى الآن لم يظهر لي فرق جليّ بين بدل الكل من الكل وبين عطف البيان، بل لا أرى عطف البيان إلا البدل، كما هو ظاهر كلام سيبويه، فإن لم يذكر عطف البيان، بل قال: أمَّا بدل المعرفة من النكرة فنحو: مررت برجل عبد الله، كأنه قيل: بمَن مررت ؟ أو ظَنَّ أنه يقال له ذلك،

فأبدل مكانه ما هو أعرف منه. ومثله قوله تعالى: ﴿ وَإنك لتهدِي إلى صِراطٍ مستقيمٍ صِرَاطِ اللهِ﴾ " (٢٣).

ذهب الرضيّ إلى أنّ بدل الكلّ من الكلّ هو عطف البيان نفسه، والبدل هو: هو أحد أنواع التوابع، وهو المقصود بالحكم بلا واسطة، وهو على أربعة أقسام، وبدل الكلّ أحد أقسامه، وهو ما يبدّل من الأوّل ويكون هو هو، نحو: مررتُ بعبد اللهِ زيدٍ، وكأنّ أصل الكلام: مررتُ بعبد الله ومررت بزيدٍ أو تقول: مررتُ بعد الله وزيدٍ، ولو قلتَ ذلك؛ لظنَّ أنّ الاسم الثاني غير الاسم الأوّل؛ لذلك أُستعملَ البدل؛ فرارًا من اللبس، وطلبًا للاختصار والإيجاز، ويجوز إبدال المعرفة من النكرة، وبالعكس، والمضمر من الظاهر، وبالعكس أيضًا(٢٤)، وعطف البيان هو " أن تقيم الأسماء الصريحة غير المأخوذة من الفعل مقام الأوصاف المأخوذة من الفعل تقول: قام أخوك محمد كقولك: قامَ أخوك الظريفُ " (٢٥)، فهو عبارة عن تكرار الاسم الأوّل؛ لزيادة في بيانه وتوضيحه عكس النعت، والتوكيد، والبدل (٢٦)، وحدّد ابن هشام ما ذهب إليه الرضيّ فقد ذكر أنّه يصح في عطف البيان أن يعرب بدل كلّ، إلّا إن امتنع الاستغناء عنه؛ أي: يمتنع أن يكون بدلًا (٢٧).

وعطف البيان: التابع الذي يشبه الصفة في توضيح متبوعه إذا كان معرفة نحو: أقسمَ باللهِ أبو حفص عمر، وهذا النوع اتفق عليه أغلب العلماء (٢٨)، وتخصيص متبوعه إذا كان نكرة، نحو: ﴿ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴾ (٢٩)، وهذا النوع ثبت عند الكوفيّين ومجموعة من العلماء(٣٠)، ومن العلماء من ذهب إلى أن هذا النوع يكون بدلا ، ويرون أن عطف البيان مختص بالمعارف(٣١)، ويختلف البدل عن عطف البيان في أمرين (٣٢):

الأمر الأوّل: أنّ البدل يكون في حكم تكرار العامل ، أمّا عطف البيان لا يكرّر فيه العامل:

أنَا ابْنُ التَّارِكُ البَكريِّ بشرٍ عليهِ الطَّيرُ ترقبهُ وقوعا

نلحظ من ذلك أنّ (بشرًا) عطف بيان للبكري ولا يمكن أن تكون بدلًا منه؛ لأنه لو كان بدلاً لوجب تكرار العامل (التارك) والتقدير: التارك البكري التارك بشر، وهذا لا يجوز، والأمر الثاني: أن المراد في عطف البيان هو الأوّل، وذكر الثاني هو بيان له عكس المراد من البدل والمبدل منه.

ودليله في ذلك هو قول سيبويه في باب بدل المعرفة من النكرة، فقد فسَّر الاسم الأولّ بالاسم الثاني (٣٣)، فقد اتّخذ الرضيّ السُّلّم الحجاجيّ في بيان ذلك، فذكر الجملة، وتمثّل أدنى مرتبة في السُّلّم، ثمّ ذكرَ قوله تعالى، وهو أعلى مرتبة في السلّم، وأعلى مرتبة في الكلام كذلك.

يتبيّن من المثال السابق أنّ تلك الحجج ليست على درجة واحدة من القوّة، وإنّما تتفاوت فيما بينها، فالجملة التي استدلَّ بها الرضيّ –وهي منقولة عن سيبويه– تقع في أسفل السلم الحجاجيّ، وأمّا الآية الكريمة فتندرج في أعلى السُّلم الحجاجيّ؛ لأنّها هي الدليل الأقوى على النتيجة، وهي أقوى الحجّتين، وكلتا الحجّتين تؤديان نتيجة واحدة، وهي: (إنّه لا يوجد فرق بين عطف البيان والبدل).

ونجد السُّلّم الحجاجيّ كذلك في موضوع النعت بقوله: " ثم اعلم أنه إن صلح النعت لمباشرة العامل إيّاه ، جاز تقديمه وإبدال المنعوت منه ، نحو ، مررت بظريف رجل ، قال:

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ركبان مكة بين الغيل والسند

وقريب منه قوله تعالى: ﴿وغرابيب سود﴾ ، لأن حق (غربيب) أن يتبع (أسود) لكونه تأكيدا له ، نحو: أحمر قانئ " (٣٤).

إذ بيّن الرضيّ في مثاله السابق إمكانيّة مجيء الموصوف مكان الصفة وأعطى الحجج على ذلك، فتلك الحجج تؤدّي نتيجة واحدة، مفادها: أن تتقدّم الصفة على الموصوف، وأن يكون الموصوف صالحًا لمباشرة العامل، إذ يعرب الموصوف بحسب موقعه وتكون الصفة بدلًا، وقد ذهب سيبويه وابن جني إلى أنّه لا يجوز تقديم الصفة على الموصوف (٣٥)؛ إذ إنّ الصفة عند سيبويه كالجزء من الموصوف؛ لأنّ الصفة والموصوف كالاسم الواحد، فلم يجز عنده تقدّم الصفة على الموصوف؛ لأنّه يخرج من باب الصفة وينتصب على الحال؛ لذا جاء الوصف منصوبًا في قولك: فيها قائمًا رجل (٣٦).

واستعمل السلَّم الحجاجيّ –أيضًا– في بيان أحكام العطف، إذ قال: " أنّه قد يحذف واو العطف مع معطوفه مع القرينة، كما إذا قيل: مَن الذي اشترك هو وزيد؟ فقلت: اشترك عمرو/أى: اشترك عمرو وزيد، قال الله تعالى: ﴿ لا يَسْتوِي مِنْكم مَّنْ أنفقَ من قبْلِ الفَتْحِ وقَاتَل ﴾(٣٧) الآية [أى: لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح ومن أنفق من بعده] " (٣٨).

فنلحظ أنّ هذه الحجج في المثال السابق لا تترتب في سلَّميّة واحدة، إنّما هي مرتبة من الأضعف إلى الأقوى، وتؤدي نتيجة واحدة، هي (حذف واو العطف مع معطوفها مع القرينة)، وكانت الحجّة الثانية هي التي أدّت النتيجة أكثر من الحجّة الأولى؛ وذلك لأنّها أقوى من سابقتها، ففي قوله تعالى حذف للمعطوف مع ولحرف العطف؛ والذي أتاحَ هذا الحذف هو وجوب مجيء حرف العطف بعد حذف المعطوف، وكذلك وجود القرينة، أي: ومن أنفق من بعده، والدليل على هذا التقدير إنّما الاستواء يكون بين شيئين ودليل المُقدَّر(٣٩)، قوله تعالى: " أُولَئِكَ أعظم دَرَجَة من الَّذين أنْفقُوا من بعد وقاتلوا"(٤٠).

وبعد تحليلنا لعدد من النماذج التي وجِدَ فيها السُّلم الحجاجيّ، نجد أنّ الرضيّ قد استعمل السلَّم؛ حتى يقنع المتلقي بالمسألة النحويّة المطروحة، فكما بدأ الرضيّ بالحجّة الأدنى صعودًا إلى الحجّة الأقوى، نجد الرضيّ في مواضع كثيرة من شرحه يبدأ من الحجّة الأقوى وينتهي بالحجّة الأدنى؛ إذ بدأ حجّجه بالآية القرآنيّة، منتهيًا بالحجّة الأدنى، داعمًا ذلك الشرح بأقوى ما موجود من الحجج، ومُدركًا لمكانة أو سُلَّميّة الحجّة، فقد قدّم الآية القرآنيّة الكريمة على الشعر، نحو: " حذفُ أحد مفعولَيْ باب "علمت" عند قيام القرينة لأنّ كل واحدٍ منهما في الظاهر منصوب برأسهِ ظاهر في المفعولية كمفعولَيْ أعطيت. وقد جاء في القرآن والشّعر، قال الله تعالى: " ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرًا لهم " (٤١)، أي بُخلهم هو خيرًا فحذف أولهما، وقال الشاعر:

لا تَخَلْنا على غَراتِكَ إنّا طالما قد وشى بنا الأعداء " (٤٢).

إنّ الفعل إذا ذكر يقوم مقام مصدره؛ لأنّه يدلّ عليه بلفظه؛ ولهذا يعود الضمير إلى المصدر بذكر فعله، وإن لم يكن له ذكر، فالمعنى في الآية الكريمة: البخل خير لهم، ودلّ عليه (يبخلون)؛ ولم يذكر البخل؛ اجتزاء؛ لعلم المخاطب بأنّه البخل بذكر الفعل (٤٣).

وجاءت الحجّة أيضًا من الأعلى إلى الأدنى في قول الرضيّ الآتي في حرف الجرّ (من) واستعماله: " وأجاز الكوفيون استعمالها في الزمان أيضًا استدلالًا بقوله تعالى: ﴿ من أول يَوم ﴾ (٤٤) وقوله تعالى: ﴿ نوديَ للصلاة من يوم الجمعة ﴾ (٤٥) وقوله:

لمن الدِّيار بقُنَّة الحجْر أقوين من حِجج ومن دَهر " (٤٦).

ذهب الكوفيون إلى أنَّ (من) يجوز استعمالها في الزمان والمكان، وحجّتهم في ذلك ما جاء في كتاب البارئ – عزّ وجلّ –، وكلام العرب، وذهب البصريّون إلى أنّه لا يجوز استعمال (من) في الزمان [٤٧].

وقد أيّدَ الرضيّ رأي الكوفيّين السابق، إذ رأى أنّه لا يوجد معنى للابتداء في الآيتين السابقتين، إذ إنّ المقصود من معنى الابتداء في (من) أن يكون الفعل المتعدّي بمن الابتدائيّة شيئًا ممتدًا، كالسير والمشي، ويكون المجرور بمن هو الشيء الذي منه ابتداء ذلك الفعل، نحو: سرت من البصرة، أو يكون الفعل المتعدّي بها أصلًا للشيء الممتدّ، نحو: تبرأتُ من فلان إلى فلان، وكذا جملة خرجت من الدار؛ لأنّ الخروج ليس شيئًا ممتدًا، إذ يقال: خرجت من الدار إذا انفصلت عنها، ولو بخطوة، والتأسيس والنداء ليسا حدثين ممتدَّين، ولا أصلين للمعنى الممتدّ، بل هما حدثان واقعان فيما بعد (من)، وهذا معنى (في)، فـ(من) في الآيتين بمعنى (في)[٤٨]، وأرى أنّ رأي البصريّين مردود؛ لمجيء معنى حرف الجرّ (من) للابتداء في الزمان في القرآن الكريم.

نستنتج مما سبق في استعمال الحجج في السلّم أنّ الحجّة قد أسهمت بما يعرف بـ(التوجيه) أو (التوجّه) الحجاجيّ، والمقصود به أنّ الحجّة اكتست بالنسبة إلى النتيجة قيمة معيّنة؛ إذ إنّها تساندها أو تعاندها بمقادير معيّنة، فالتوجيه الحجاجيّ إذًا يقوم بتحديد تسلسل القضايا، وفيه ينتمي الملفوظ إلى الفئة الحجاجيّة نفسها [٤٩].

الخاتمة ونتائج البحث

خلص هذا البحث إلى مجموعة من النتائج، وهي:

١- إنّ الرضيّ قد استعمل هذه النظريّة الحديثة، لكن ليس بالدقة التي تناولها المحدثون في كتب الحجاج، فهو لم يصرّح بها علنًا، ولم يؤصّل لها كنظريّة مكتملة الجوانب، لكن القارئ حينما يقرأ شرح الرضيّ يجد جذورًا، وإشارات لهذه النظريّة، كان من الممكن أن تستثمَر من الجيل الذي لحق الرضيّ، وتصبح نظريّة واضحة المعالم، وكذلك عدّت من أهمّ تقنيات الحجاج التي استعملها الرضيّ؛ لتثبيت القواعد النحويّة، وقد أسهمت تلك الحجج في عملية إقناع المتلقي.

٢-إنّ نظريّة السلالم الحجاجيّة من أولويّات البحث في الدرس النحويّ؛ لأنّ القضية النحويّة التي تشرح لا بدّ أن يكون فيها نوع من التدرّج؛ للوصول بها إلى ذهن المتلقي، وهذا التدرّج كان حاضرًا في شرح الرضيّ باستعماله الحجج من الأدنى إلى الأعلى، أو بالعكس.

Abstract

The theory of the pilgrim ladders in the explanation of Al-Radi on the Kafiya of Ibn Al-Hajib

By Asmaa Saeb Mohammed Jawad Alknany

And Mustafaa kazim shghydl

Pilgrimage: It is a positive relationship to the arguments, and the arguments in the peace, either from the bottom to the top, or vice versa.

It has been concluded that Rashmi has used this modern theory, but not with the precision that the modernists have addressed in the books of pilgrims. He has not stated it publicly, nor has it been rooted as a full-fledged theory, but the reader, when he reads the explanation, finds roots. To invest from the generation of the right of the land, and become a clear-cut theory, as well as one of the most important techniques of pilgrims used by the ground; to install grammatical rules, and these arguments contributed to the process of convincing the recipient

The theory of ladders is one of the research priorities of the grammatical lesson, because the grammatical issue that is explained must be a kind of gradient to reach the recipient's mind. This gradient was present in explaining the ground using arguments from the lowest to the top or vice versa. .

الهوامش

(١) ينظر: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغويّة تداوليّة: ٤٩٩-٥٠٠.
(٢) ينظر: العوامل الحجاجيّة في اللغة العربيّة: ١٢٢.
(٣) ينظر: العوامل الحجاجيّة في اللغة العربيّة: ١٢٢، والسلالم الحجاجيّة في القصص القرآنيّ – مقاربة تداوليّة – (أطروحة دكتوراه): ١١٧.
(٤) ينظر: العوامل الحجاجيّة في اللغة العربيّة: ١٢٣-١٢٦.
(٥) ينظر: العوامل الحجاجيّة في اللغة العربيّة : ١٢٥، والسلالم الحجاجيّة في القصص القرآنيّ – مقاربة تداوليّة – (أطروحة دكتوراه): ١١٦.
(٦) ينظر: اللغة والحجاج: ٢١، واللسان والميزان أو التكوثر العقليّ: ٢٧٧، وفي أصول الحوار وتجديد علم الكلام: ١٠٥-١٠٦، واستراتيجيات الخطاب مقاربة لغويّة تداوليّة: ٥٠٠
(٧) ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقليّ: ٢٧٧.
(٨) ينظر: اللغة والحجاج: ٢٠-٢١.
(٩) ينظر: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغويّة تداوليّة: ٥٠٠.
(١٠) ينظر: السلالم الحجاجيّة في القصص القرآنيّ – مقاربة تداوليّة – (أطروحة دكتوراه): ١١٦.
(١١) ينظر: أهم نظريّات الحجاج في التقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم: ٣٦٣.
(١٢) النظريّة الحجاجيّة من خلال الدراسات البلاغيّة والمنطقيّة واللسانيّة: ٩٤.
(١٣) ينظر: المصدر نفسه: ٩٥.
(١٤) ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقليّ: ٢٧٧.
(١٥) ينظر: تجليات الحجاج في القرآن الكريم سورة يوسف إنموذجًا (رسالة ماجستير): ٧٦.
(١٦) ينظر: اللغة والحجاج: ٢٤.
(١٧) ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقليّ: ٢٧٨.
(١٨) ينظر: المصدر نفسه: ٢٧٨.
(١٩) ينظر: اللغة والحجاج: ٢٢.

(٢٠) ينظر: المصدر نفسه: ٢٣.
(٢١) ينظر: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم: ٣٧٠.
(٢٢) ينظر: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغويّة تداوليّة: ٥٠٤.
(٢٣) شرح الرضيّ على كافيّة ابن الحاجب: ١١٣/٣.
(٢٤) ينظر: الأصول في النحو: ٤٦/٢، وشرح الأشمونيّ لألفيّة ابن مالك: ٣/٣.
(٢٥) اللمع في العربيّة: ٩٠، وينظر: اللباب في علل البناء والإعراب: ١/ ٤٠٩.
(٢٦) ينظر: الكشف عن صاحب البسيط في النحو: ١٦٢.
(٢٧) ينظر: أوضح المسالك على ألفيّة ابن مالك: ٣١٢/٣.
(٢٨) ينظر: أوضح المسالك على ألفيّة ابن مالك: ٣١٠/٣.
(٢٩) إبراهيم: ١٦.
(٣٠) ينظر: المصدر نفسه: ٣١٠/٣.
(٣١) ينظر: المصدر نفسه: ٣١١/٣.
(٣٢) ينظر: المفصّل في صنعة الإعراب: ١٦٠/١.
(٣٣) ينظر: الكتاب: ١٤/٢، ٨٦/٣.
(٣٤) شرح الرضيّ على كافيّة ابن الحاجب: ٥٦/٣، استشهد الرضيّ بهذا البيت "على أنّ العائذات كان في الأصل نعتًا للطير، فلمّا تقدّم وكان صالحًا لمباشرة العامل أعرب بمقتضى العامل، وصار المنعوت بدلًا منه، فالطير بدل من العائذات، وهو منصوب إن كان العائذات منصوبًا بالكسرة على أنّه مفعول به للمؤمن، ومجرور إن كان العائذات مجرورًا بإضافة المؤمن إليه ". شرح الرضيّ على كافيّة ابن الحاجب: هامش رقم (٢): ٥٦/٣-٥٧.
(٣٥) ينظر: الكتاب: ١٢٢/٢، والخصائص: ٣٨٧/٢.
(٣٦) ينظر: الكتاب: ٢١٠/١، ٢٧٦.
(٣٧) الحديد: ١٠.
(٣٨) شرح الرضيّ على كافيّة ابن الحاجب: ٨١/٣.
(٣٩) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ٨١٩.
(٤٠) الحديد: ١٠.
(٤١) آل عمران: ١٨٠.
(٤٢) شرح الرضيّ على كافيّة ابن الحاجب: ٢٠٣/١.
(٤٣) ينظر: الكتاب: ٣٩١/٢، والمقتضب: ٥٢/٤، والأصول في النحو: ١٧٦/٢، والإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويّين: البصريّين والكوفيّين: ١١٣/١.
(٤٤) التوبة: ١٠٨.
(٤٥) الجمعة: ٩.
(٤٦) شرح الرضيّ على كافيّة ابن الحاجب: ٧/٦.
(٤٧) ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويّين: البصريّين والكوفيّين: ٣٠٦/١، واللمحة في شرح الملحة: ٦٤/١.
(٤٨) ينظر: شرح الرضيّ على كافيّة ابن الحاجب: ٧/٦-٨.
(٤٩) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبيّة: ٢٦١، والحجاج مفهومه ومجالاته – دراسات نظريّة وتطبيقيّة في البلاغة الجديدة: ٩٥/٢، والسلالم الحجاجيّة في القصص القرآنيّ – مقاربة تداوليّة – (أطروحة دكتوراه): ١٤٠.

قائمة المصادر والمراجع

– القرآن الكريم.
– استراتيجيات الخطاب مقاربة لغويّة تداوليّة، عبد الهادي بن ظافر الشهريّ، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط(١)، ٢٠٠٤م.
– الأصول في النحو، أبو بكر محمّد بن السريّ بن سهل بن السرّاج (ت٣١٦ه)، تحقيق: عبد الحسين الفتليّ، مؤسّسة الرسالة، بيروت – لبنان.

– أهمّ نظريّات الحجاج في التقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانيّة – تونس، سلسلة آداب.
– الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويّين: البصريّين والكوفيّين، أبو البركات كمال الدين الأنباري (ت٥٧٧هـ)، المكتبة العصرية ، ط(١)، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.
– أوضح المسالك إلى ألفيّة ابن مالك، أبو محمّد جمال الدين بن هشام (ت٧٦١ه)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعيّ ، دار الفكر.
– تجليات الحجاج في القرآن الكريم سورة يوسف – إنموذجًا –، حياة دحمان، جامعة الحاج لخضر – باتنة، الجزائر، رسالة ماجستير، ١٤٣٤ه – ٢٠١٣م.
– الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبيّة، عبد الله صولة، دار الفارابيّ، بيروت – لبنان، ط(٢)، ٢٠٠٧م.
– الحجاج مفهومه ومجالاته – دراسات نظريّة وتطبيقيّة في البلاغة الجديدة، تقديم: حافظ إسماعيلي علوي، منشورات عالم الكتب الحديثة، الأردن.
– الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢ه)، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب.
– السلالم الحجاجيّة في القصص القرآنيّ – مقاربة تداوليّة –، بوسلاح فايزة، كلية الآداب والفنون، الجزائر، أطروحة دكتوراه، ٢٠١٥ م.
– شرح الأشمونيّ لألفيّة ابن مالك، عبد الله بن عبد الرحمن العقيليّ الهمدانيّ (ت٧٦٩ه)، تحقيق: محمّد محي الدين عبد الحميد، دار التراث – القاهرة، ط(٢٠)، ١٤٠٠ه- ١٩٨٠م.
– شرح الرضيّ على كافيّة ابن الحاجب، رضيّ الدين محمّد بن الحسن الأستراباذيّ (ت٦٨٦ه)، تحقيق: أ.د.عبد العال سالم مكرم، عالم الكتب، القاهرة، ط(١)، ١٤٢١ه-٢٠٠٠م.
– العوامل الحجاجيّة في اللغة العربيّة، د.عزّ الدين الناجح، مكتبة علاء الدين، صفاقس – تونس، ط(١)،٢٠١١م.
– في أصول الحوار وتجديد عِلْم الكلام، د.طه عبد الرحمن، المركز الثقافيّ العربيّ، ط(٢)، ٢٠٠٠م.
– الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب سيبويه (ت١٨٠ه)، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ط(٣)، ١٤٠٨ه-١٩٨٨م.
– الكشف عن صاحب البسيط في النحو، حسن موسى الشاعر، الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
– اللباب في علل الإعراب والبناء، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبريّ (ت٦١٦ه)، تحقيق: عبد الإله النبهان، دار الفكر، دمشق، ط(١)، ١٤١٦ه-١٩٩٥م.
– اللسان والميزان أو التكوثر العقليّ، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافيّ العربيّ، ط(١)، ١٩٩٨م.
– اللغة والحجاج، د. أبو بكر العزاويّ، منتديات سور الأزبكية، ط(١)، ١٤٢٦ه-٢٠٠٦م.
– اللمع في العربيّة، أبو الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢ه)، تحقيق: فائز فارس، دار الكتب الثقافيّة، الكويت.
– مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، أبو محمّد جمال الدين بن هشام (ت٧٦١ه)، تحقيق: د. مازن المبارك، محمّد عليّ حمد الله، دار الفكر – دمشق، ط(٦)، ١٩٨٥م.
– المفصّل في صنعة الإعراب، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله الزمخشريّ (ت٥٣٨ه)، تحقيق: د.عليّ بو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت، ط(١)، ١٩٩٣م.
– النظريّة الحجاجيّة من خلال الدراسات البلاغيّة والمنطقيّة واللسانيّة، محمّد طروس، دار الثقافة، المغرب، ط(١)، ٢٠٠٥م.